أيّة وظيفة يؤدّيها الإعلام؟

بقلم: بشير الكبيسي
كاتب وصحفي عراقي

عادةً في الثّقافة الجماهيريّة، يتمّ اعتبار الإعلام عاملاً من عوامل التغيير نحو واقع أفضل ممَّا هو معاش في هذه اللحظة الرّاهنة؛ ولكن حتى نتحقق مِنْ هذه الفرضيّة المطروحة على طاولة النقاش، لا بدّ لنا أن نعود إلى تاريخ تطوّر نظريّات الاتصال في القرن العشرين التي ارتبطت بدورها ارتباطاً وثيقاً بتطوّر النظريّات الفلسفيّة.

يرتكز الموضوع المطروح على سؤال جوهريّ يتكوّن مِنْ أكثر مِنْ شق: هل الإعلام يؤدّي وظيفة؟ وما نوع هذه الوظيفة؟ ومَنْ تخدم؟...للإجابة عن هذه الأسئلة، سنقارب الموضوع مقاربةً تاريخيّة، لعلّنا نصل إلى أُطرٍ تمكّننا من فهم حيثيّات الموضوع، والتحقق من صحّة الفرضيّة أو من عدم صحّتها.

المقاربة التاريخيّة:[١]

في القرن التاسع عشر، كان الأوروبيّون هم أكبر المهتمّين في علوم الاتصال، وبرز عالِمان هما: الإيطاليّ سيبيو سيغل Scipio Sighele (١٨٦٨ ـ ١٩١٣)، والطبيب الفرنسي المتخصّص بالأمراض النفسيّة[٢] غوستاف لوبون Gustave Le Bon (١٨٤١ ـ ١٩٣١)، وقد تبنَّى كلّ منهما الرؤية القائلة بإمكانيّة التحكّم التوجيهي والتضليلي في المجتمع.[٣]

علماً أنَّ هذه الحقبة يتمّ تصنيفها على أنَّها حقبة يمينيّة، لم تكن تؤمن بمحوريّة الشعوب وبنضالاتها، لذلك نرى أنَّ كتاب غوستاف لوبون «سيكولوجيّة الجماهير» كان يجسّد التيّار السائد والمسيطر وقتذاك، بما في ذلك من يقومون على وسائل الاتصال.

عام ١٩١٣م، تمَّ تأسيس أوّل معهد لبحوث الاتصال الجماهيريّ في الولايات المتحدة الأمريكيّة، وسُمّي «مدرسة شيكاغو»،[٤] وهنا أصبح الاتصال

١ـ ملاحظة: لن أقف على تاريخ نظريّات الاتصال بالتفصيل، ولكنّي سأقف عند بعض المحطّات التي تهمّنا في معالجة هذا الموضوع.

٢ـ ربّما سيستغرب القارئ من اختصاص العالم غوستاف لوبون، كونه متخصّصاً في الأمراض النفسيّة، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّه في تلك الحقبة الزمنيّة، لم يتشكل الاتصال ـ الذي من وظائفه الإعلام ـ كعلمٍ قائمٍ بذاته، وإنّما دأب العلماء وقتذاك على ربط الاتصال بالعلوم الأخرى، وواحد منها هو علم النفس.

٣ـ أرمان وميشال ماتلار، تاريخ نظريّات الاتصال، ترجمة: د. ناصرالدين العياضي و د. الصادق رابح، المنظمة العربيّة للترجمة، ٢٠٠٤، ط٣، ص٣٤

٤ـ المدرسة الأمريكيّة سُمّيت باسمين: الأوّل "التجريبيّة"، لأنّها اختارت المدينة فضاءً لممارساتها البحثيّة التجريبيّة، والاسم الثاني "الوظيفيّة"، وهذا يعني أنَّ الاتصال يؤدّي وظائف عدّة.